علم النفس عند المسلمين **المحاضرة الخامسة**

يعد علماء العرب والمسلمين من بين اعلام الفكر التربوي البارزين الذين اغنوا التراث التربوي العالمي بما قدموه من اراء تربوية كان لها اثر كبير في تطور العملية التربوية ونموها عبر التاريخ حيث ما زال كثير من المربين المحدثين يستشهدون بها في بحوثهم ومعالجاتهم للمشكلات التي يتناولونها لإثرها الكبير في توجيه التربية والتعليم .

والحقيقة ان للعرب والمسلمين قصب السبق في كثير مما يتناوله علم النفس والتربية في الوقت الحاضر . لذلك يجب ان نعنى بإحياء التراث والعمل على تطبيق مبادئه . بحيث لا تأتي إصلاحاتنا التربوية من فراغ . او يعتمد على استيرادها فتاتي نشازا غريبة عن التربية الاسلامية والعربية. بل يجب ان تكون امتدادا طبيعيا لتراثنا الاصيل واذا كنا نفخر باننا ابناء ارقى حضارة عرفتها الانسانية بل هي الحضارة التي علمت الانسانية جمعاء وكانت السبب الرئيسي في قيام النهضة الغربية . فالأولى بنا ان ننقل الى حيز التطبيق العملي والعقلي مبادئ هذه الحضارة واسسها . وسنتناول ابرز اولئك العلماء .

الفارابي: هو ابو نصر محمد بن محمد بن اوزلغ . ولد في بلدة وسيج قرب فاراب على نهر سيمون في بلاد الترك سنة 295 هـ .وما كاد يبلغ اشده حتى هاجر الى بغداد بصحبة والده حيث كان جنديا فقيرا معدوما ، وفي بغداد درس العربية وتعليم النحو على يد ابي بكر محمد بن السرى المعروف بابن السراج ، ثم غادر بغداد سنه 329هـ . متوجها الى دمشق وبقي هناك فترة قليلة ثم توجه الى حلب وبقي في بلاط سيف الدولة الحمداني معززا مكرما لعدة سنوات ليست بالقليلة ، ثم اعتزل الناس وبدا يشتغل بالمحكمة والتأليف . وقبل لنه تجاوز الثمانين من عمره. وكانت له مؤلفات كثيرة في مختلف العلوم والفقه والفلك والرياضيات ، وكان من اعظم فلاسفة العرب الذين هذبوا صناعة المنطقة توفي عام 339هـ.

ويتناول الفارابي ايضا موضوع تماسك الجماعة فيستعرض الآراء الاتية في الاسس النفسية الاجتماعية التي يستند اليها هذا التماسك وهي :

1-تشابه الخلق والشيم الطبيعية والاشتراك في اللغة واللسان

2-الاشتراك في المنزل. ويشير الفارابي بطريقة غير مباشرة الى ان السببين السابقين يخصان الجماعة الكبيرة الحجم .

اما الجماعات الصغيرة فمن اسس التماسك بين اعضائها :

1-طول التلاقي

2-والاشتراك في طعام يؤكل وشراب يشرب

3-والاشتراك في شر يدهمهم وخاصة متى كان نوع الشر واحدا وتلاحقها فان بعضهم يكون بعض

4-والاشتراك في لذة ما

5-والاشتراك في الامكنة التي لا يؤمن فيها ان يحتاج كل واحد الى الاخر مثل التوافق في السفر.

المدينة الفاضلة عند الفارابي

لقد عرف المدينة الفاضلة بانها المدينة التي يؤدي الاجتماع فيها الى التعاون فيما بينهم في سبيل نيل السعادة الحقيقية . وحيث قام بدراسة نفسية الانسان وفطرته الاجتماعية ونظام الهيئة البشرية وما عليها لتسعد وتركيبها في هذه الدنيا وتنال المثال الاعلى في تحقيق الكمال. واكد على ضرورة تعاون الافراد وتكاتفهم وذلك لحاجة الفرد الملحة الى بني جنسه حيث لو لا هذا التعاون الذي يحدث في جميع المجالات والحقول لما عمرت الارض ولا كثرت الجماعات. ويعمد الفارابي الى تصنيف الافراد وجماعات الناس الى طبقات بعضها فوق بعض في الفقر والمال او الجاه. ويقول ، ان هذه الجماعات تتصارع فيما بينها وكذلك الافراد .

وقد وصف الفارابي رئيس المدينة الفاضلة بانه الرئيس الحقيقي للامة ورئيس المعمورة كلها ولا يمكن ان يكون رئيس فوقه بل هو فوق الجميع ولا يجوز لأي انسان ان يكون رئيسا لان الرئيس هو انسان قد استكمل الصفات الحسنة وهو منبع السطلة العليا والمثل الاعلى . فالرئاسة لا تكون الا بشيئين احدهما ان يكون بالفطرة والثانية بالهيئة والملكة الارادية. كذلك الرئيس هو الانسان الذي يقف على كل فعل يمكن ان يبلغ به السعادة. وان يكون له مع ذلك قدرة بلسان على جودة التخيل بالقول وان تكون له قدرة على جودة الارشاد للسعادة . وقد حدد صفات رئيس المدينة الفاضلة باثنتا عشرة صفة وهي :

1-ان يكون تام الاعضاء

2-ان يكون جيد الفهم والتصور لكل ما يقال

3-ان يكون جيد الحفظ لما يقرا وما يسمعه ويراه ولما يدركه .

4-ان يكون جيد الفطنة

5-ان يكون حسن العبارة قوي اللسان

6-ان يكون محبا للتعليم والاستفادة

7-ان يكون معتدلا في طب الملذات

8-ان يكون محبا للصدق والعدل مكرها للظلم والكذب

9-ان يكون كبير النفس محبا للكرامة

10-ان يكون محبا للعدل ومبغضا للجور والظلم واصلهما

11-ان يكون عدلا غير صعب القيادة غير لجوج اذا دعي الى العدل وصعب القيادة اذا دعي للجور او القبيح .

12-ان يكون قوي العزيمة على الشيء . مقدما غير ضائق ولا ضعيف النفس .

ابن سينا

ولد الشيخ ابو علي الحسين بن عبد الله بن حسن بن علي بن سينا في شهر صفر سنة 370هـ . في بلدة افشنة من منطقة بخارى عن ابوين اسماعيليين . وكان ابن سينا على الرغم من صغر سنه يستفسر من والده واعمامه الذين كانوا من كبار العلماء عما يتفاعل في اعماقه من قضايا فلسفية ومذهبية وعلمية . واتم دراسة الادب واللغة قبل ان يبلغ العاشرة من عمره. وقد عكف على دراسة الطب والعلوم الاخرى كالفلك والرياضيات والفلسفة والموسيقى وعلم النفس والتربية .

النفس عند الفارابي

يعتقد الفارابي ان النفس هي صورة الجسد وقوامه وهي القوة التي تعين الاجسام وتساعدها على بلوغ كمالها. والنفس جوهر روحاني بسيط قائم بذاته وليس عرضا من اعراض الجسم ، وقد قسم الفارابي النفس الى اربعة اقسام :

1-القوة الغذائية : وهي القوة التي يتغذى منها الفرد . ومركز هذه القوة هو الفم .

2-القوة الحساسة : وهي القوة التي يحس بها الفرد مثل احساسه بالحرارة والبرودة ولكل حاسة عضو خاص بها وتأتي بعد القوة الغذائية .

3-القوة المتخيلة : وهي القوة التي يحفظ بها ما ارتسم في نفس الانسان من المحسوسات بعد غيبتها عن مشاهدة الحواس وهذه تركيب المحسوسات بعضها الى بعض وتفصل بعضها عن بعض هذه التركيبات والتفصيلات المختلفة ، بعضها كاذبة وبعضها صادقة .

4-القوة الناطقة : وهي القوة التي يمكن بها ان يعقل المعقولات ويميز بين الجميل والقبيح وهي واحدة في العدد ، ورئيسة القوى الحاسة والمتخيلة .

الفارابي يتفق مع ارسطو في القول بوجود اساس نفسي فطري للحياة الاجتماعية . ويقول في ذلك .
ولكل واحد من الناس مفطور على انه محتاج في قوامه وفي ان يبلغ كمالاته الى اشياء كثيرة لا يمكن ان يقوم بها كلها هو وحده ، بل يحتاج الى قوم يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج اليه ، فلذلك لا يمكن ان يكون الانسان ينال الكمال الذي لأجله جعلت له الفطرة الطبيعية الا باجتماعات كثيرة متعاونين يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج اليه في قوامه وفي ان يبلغ الكمال . ولهذا كثرت اشخاص الانسان فحصلوا في المعمورة من الارض فحدثت منها الاجتماعات الانسانية .
ولكن يلاحظ ان هذا الاساس الفطري يقول به هذا المفكر يختلف الى حد ما في مضمونة عن الاساس الذي يقول به ارسطو، فالأساس الفطري عند ارسطو ميل فطري الى التجمع . وهو شبيه بما سمي في بعض البحوث الحديثة بغريزة التجمع . اما عند الفارابي فالأساس الفطري هو العجز عن سد الحاجات الاساس لدى الفرد .

النفس عند ابن سينا

تحدث ابن سينا عن النفس الانسانية واهتمامه بها افاق الوصف ، وقدم البراهين الفعلية المقنعة التي تثبت وجود النفس كجوهرة روحانية قائمة بذاتها ، واصل للقوة المدركة والمحركة في اجزاء الجسم الانساني. اما الوظيفة التي تقوم بها النفس فهي ادراكها المعقولات .. وهذا يدل على تحرر النفس عن الجسم .

يلاحظ ابن سينا ان للنفس جانبين :

1-الجانب الاول يشترك فيه الانسان مع الحيوان والنبات ويعرف النفس في هذا الجانب بانها كمال لجسم طبيعي الى ذي حياة بالقوة .

2-الجانب الذي يشترك الانسان مع الملائكة فعرف النفس انها جوهرة روحانية تكمل الجسم وتحركه بالاختيار عن مبدا منطقي عقلي بالقوة للنفس الانسانية .

ويقسم ابن سينا الوظائف النفسية الى ثلاثة اقسام وهي :

1-وظائف يشترك فيها الحيوان مثل الاحساس والتخيل والحركة الارادية

2-وظائف يشترك فيها الحيوان والنبات كالتغذي والنمو والتوليد

3- وظائف تخص الانسان وحده وهي وظائف العقل .

نجد ان النفس عند ابن سينا حظيت بالمقام الاول في جميع ما عالجه من الموضوعات وانه اهتم بها اهتماما كبيرا ، لذلك فان النفس عنده خالدة. ولها فيها مباحث كثيرة اهمها اثبات وجود النفس حدوث وبيان قواها ووحدتها واكتسابها للمعرفة .

ابن سينا والاحساس الظاهر :

عني ابن سينا عناية خاصة بدراسة الادراك الحسي . فبحثه بحثا مستفيضا. وكانت كتاباته في هذا الموضوع من المراجع العامة التي اثرت تأثيرا كبيرا في تفكير الفلاسفة المسلمين والمسيحيين طوال الاجيال التالية حتى عصر النهضة والاحساس عنده نوعان : احساس ظاهر واحساس باطن . فيحدث الاحساس الظاهر عن طريق الحواس الخمس الظاهرة وهي : البصر والسمع والشم والذوق واللمس . ويحدث الاحساس الباطن عن طريق الحواس الخمسة الباطنة وهي : الحس المشترك . المصورة والمتخيلة والقوة الوهمية والذاكرة الحافظة .

يعرف ابن سينا الادراك على العموم بانه قبول المدرك لصورة المدرك . ويعرف الاحساس بانه قبول الحاسة لصورة المحسوس . والقوة الحاسة مثل المحسوس بالقوة . فاذا انفصلت عنه تصبح مثله وشبيهه ، فالإحساس انتقال من القوة الى الفعل . واستحالة الى مشابهة المحسوس بالفعل .

وتعريف الاحساس بانه قبول الى صورة المحسوس ، او استحالة الحس الى مشابهة المحسوس فكرة ارسطية الاصل ، وقد ذاع هذا التعريف فيما بعد بين الفلاسفة .وظل هذا التعريف دائما طوال القرون الوسطى بين الفلاسفة اللاتينيين .

فاذا حللنا الاحساس الظاهر في مذهب ابن سينا امكننا ارجاعه الى اربعة عناصر. العناصر الثلاثة الاولى عناصر ضرورية يجب ان تتوفر لكي يحدث الاحساس اما العنصر الرابع فليس ضروريا لحدوث الاحساس وانما هو عنصر انفعالي يلحق الاحساس او يصاحبه.

1-المحسوس الخارجي : يشترط في حدوث الاحساس الظاهر وجود مؤثر خارجي يؤثر في عضو الحس .

2-انفعال الحس : ويشترط في حدوث الاحساس انفعال الحس عن المحسوس. فان لم ينفعل الحس لم يحدث الاحساس .

3-الوسط :ويلزم وجود وسط ينتقل خلاله تأثير المحسوس في الحس ، ويقوم الهواء والماء بدور الوسط للحواس ماعدا حاسة اللمس التي تحس بالملامسة المباشرة بينها وبين الملموس. ويتردد ابن سينا في امر اللمس ، فتارة يقول ان اللحم وسط له ، وتارة يقول انه ليس بوسط ولكنه الة اللمس.

4-اللذة والالم : يصاحب الاحساس عادة شعور باللذة او الالم فاذا تكيف الحس بكيفية ملائمة شعر باللذة ، واذا تكيف بكيفية مناخية او منافرة شعر بالألم ، فاللذة ادراك الملائم والالم ادراك المنافي.

والمحسوسات عنده نوعان وفيها هذا يحذو حذو ارسطو فيقسمها الى محسوسات مدركة بالذات ، ومحسوسات مدركة بالعرض . المحسوس بالذات هو المحسوس الذي يؤثر في الحس وينفعل عنه الحس. اما المحسوس بالعرض فليس في الواقع محسوسا يؤثر في الحس . وانما هو معنى يدركه الحس لوجوده عرضا في المحسوس بالذات . فالأبيض مثلا محسوس للبصر بالذات . اما كون هذا الابيض هو فلان ن فهذا محسوس بالعرض لان البصر لا ينفعل عنه من حيث هو فلان وانما من حيث هو ابيض فقط .

والمحسوسات المدركة بالذات نوعان : محسوسات خاصة بكل حاسة ومحسوسات مشتركة بين الحواس جميعها .والمحسوس الخاص الذي تحسه حاسة معينة ولا تحسه غيرها مثل اللون للبصر، والصوت للسمع، والمحسوسات المشتركة تحسها الحواس جميعها وهي الشكل والعدد والمقدار والحركة والسكون.

ويقابل تقسيم ابن سينا للمحسوسات الى خاصة ومشتركة التقسيم الذي وضعه (جون لوك) للكيفيات المحسوسة الى كيفيات اولية وكيفيات ثانوية. الكيفيات الاولية هي الكيفيات المتحققة في المادة وهي الشكل والعدد والمقدار والحركة والسكون والمقاومة وهي تقابل المحسوسات المشتركة عند ابن سينا . اما الكيفيات الثانوية فهي لا توجد في الواقع متحققة في المادة ، وانما هي مظاهر من ابتكار حواسنا ندرك بواسطتها الاجسام الطبيعية مثل اللون والصوت والرائحة والطعم .. الخ . وهي تقابل المحسوسات الخاصة عند ابن سينا . ويميز ابن سينا بين المحسوسات الخاصة بكل حاسة بين محسوسات بسيطة اولية ومحسوسات مركبة من المحسوسات البسيطة الاولية . والمحسوسات البسيطة للمس اربعة ازواج هي : الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة ، والخشونة والملوسة ، والصلابة والليونة ، اما الحواس الاربع الباقية فكل منها زوج

واحد من المحسوسات البسيطة . فللشم الرائحة الطيبة والرائحة العفنة وللذوق الحلو والمر وللسمع الصوت الثقيل والصوت الجاد وللبصر الابيض والاسود اما بقية المحسوسات الاخرى فهي مركبة من هذه المحسوسات البسيطة كالاغير من الابيض والاسود والفاتر من الحار والبارد .

الاحساس الباطن :

لا تستطيع الحواس الخمس الظاهرة التمييز من محسوساتها الظاهرة وبين محسوسات الحواس الاخرى . ومن الضروري لكي تتم المعرفة ويحصل الغرض منها اكتساب الكمال ، ان تجتمع المحسوسات المختلفة عند قوة واحدة تستطيع التمييز بينها. وليس ذلك في نظر ابن سينا ضروريا فقط لاكتساب المعرفة .ولكنه ضروري ايضا لاستمرار الحياة . ويسمي ابن سينا القوة الحسية التي تميز المحسوسات بالحس المشترك . وهو مركز الحواس وعنده تجتمع جميع المحسوسات. ومن الضروري ايضا لكمال الحياة والمعرفة ادراك صور المحسوسات في غياب المحسوسات ذاتها . وبتعاون الحس المشترك والمصورة يستطيع الانسان الجمع بين الادراك الحاضر والادراك الماضي وهذا امر ضروري في الحياة العملية وفي اكتساب المعرفة على السواء . ووظيفة المصورة مجرد حفظ صور المحسوسات دون ان يكون لها اي فعل فيها. ولكننا نستعيد هذه الصور في مناسبات مختلفة ، وتجمع بعض الى بعض، وتفصل بعضها عن بعض ، فتكون صورا خيالية غير موجودة في الخارج كما يحدث في احلام النوم وخيالات اليقظة . ويقول ابن سينا بوجود قوة حسية خاصة تقوم بهذه المهمة وتسمى متفكرة او مفكرة .

ويرى ابن سينا ان تجاويف المخ هي مركز الحواس الباطنة . فمركز الحس المشترك في اول التجويفين الاماميين للمخ . ومركز المصورة في اخر التجويفين الاماميين . ومركز التخيل في اول التجويف الاوسط . ومركز الوهم في اخر التجويف الاوسط . ومركز الذاكرة الحافظة في التجويف الاخير .

يتفق ابن سينا مع ارسطو الى حد ما في الاعتراف بأهمية الادراك الحسي في اكتساب المعرفة ولكنه لا يذهب في ذلك الى الحد الذي يذهب اليه ارسطو فيعد الاحساس اساس المعرفة. وبدونه لا تكون معرفة ولا تفكير . ولكنه يلتقي باعتبار الادراك الحسي مرحلة اولية ضرورية تهيء النفس للإدراك العقلي الذي هو في الحقيقة غير مكتسب من الحواس . وهو كذلك يتفق مع افلاطون في القول بوجود المعقولات وجودا مستقلا خارج العقل الانساني بحيث تصبح المعرفة العقلية الى حد ما شيئا لا يستمد من الحواس وانما يكتسب من عالم المعقولات على سبيل الفيض والالهام . والراي الاول يذهب الى ان التفكير يحدث باستخدام صور خيالية. ويذهب الراي الثاني الى ان التفكير هو تأمل المعاني العقلية البحتة بدون مشاركة التخيل المختلط بالصور الحسية . كيف استطاع ابن سينا التوفيق بين هذين المذهبين المتقابلين ، المذهب الحسي الارسطي ، والمذهب العقلي الافلاطوني ؟

يرى ابن سينا ان العقل يستعين بالتخيل في انتزاع الكليات من الجزئيات المدركة بالحس . وذلك بان يستعرض العقل بوساطة التخيل والوهم هذه الجزيئات المحفوظة في المصورة والحافظة . فيستنبط منها المعاني الكلية ويستمد منها مبادئ التفكير ، الى هذا الحد يمكن القول بان العقل يستعين بالصور الخيالية في التفكير . ولكن ليس هذا الا مرحلة اولية من مراحل التفكير هي مرحلة تهيؤ واستعداد فقط. اما عمل العقل الخاص وهو تعقل المعقولات الكلية المجردة فهي مرحلة اخرى .